مجلة الإحياء، المجلد: 23، العدد: 32، جانفي 2023، ص - ص: 637 – 652
الترقيم الدولي: 1112-4350   الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

مفاسد الكونية الثقافية في زمن العولمة لدى طه عبد الرحمان

The evils of cultural universalism in the era of globalization At Taha Abdel Rahman

د/ عبد السلام بوزبرة
جامعة محمد بوضياف المسيلة
مخبر الدراسات الأنتروبولوجية والمشكلات الاجتماعية
abdeslem.bouzabra@univ-msila.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/02   تاريخ القبول: 2022/11/15

الملخص:
يعد المفكر المغربي طه عبد الرحمن من بين المفكرين العرب المعاصرين، الذين اهتموا بشأن جدلية العلاقة بين الثقافة و العولمة، حيث قدم إسهامات مبتكرة في هذا المجال تنم عن اجتهاد وإبداع فكري أصيل، فطه عبد الرحمن يعتقد بأن عولمة الثقافة أمر واقع ومفروض لا يمكن إنكار هدفه نحو الهيمنة والتسلط ،والنزوع نحو اختراق واحتواء الخصوصيات الثقافية و الدينية بغرض تنميطها بدعوى الحداثة و التحضر والعقلانية .لهذا انبرى طه عبد الرحمن بالكشف عن مفاسد وآفات الواقع الكوني المعولم وخطرها على الخصوصيات الثقافية والقومية وفي الوقت نفسه مجتهدا في تقويم مفارقاته ، مؤكدا على ضرورة انفتاح الخصوصية، على غيرها من الأمم الأخرى وتمسكها بثوابت هويتها وفي الوقت نفسه تفاعلها مع غيرها مع مقتضيات الزمن الراهن.
الكلمات المفتاحية: الثقافة؛ العولمة؛ الهيمنة؛ الواقع الكوني؛ الحوار والتعارف.

Abstract:
The Moroccan thinker Taha Abdel Rahman is among the contemporary Arab thinkers who have been concerned about the dialectic of the relationship between culture and globalization, as he made innovative contributions in this field that reflect original intellectual diligence and creativity. Hegemony and authoritarianism, and the tendency towards penetrating and containing cultural and religious idiosyncrasies in order to stereotype them under the pretext of modernity, urbanization and rationality. For this reason, Taha Abdel Rahman embarked on revealing the evils and pests of the globalized global reality in cultural and national idiosyncrasies. While, at the same time, striving to evaluate its paradoxes, stressing the need to open privacy, in other nations, and their adherence to the constants of their identity and at the same time, their interaction with others with the requirements of the current time.
Key words :the culture; globalization; domination; cosmic reality; Dialogue and acquaintance.

مقدمة

تاريخ الفكر الفلسفي عموما يؤكد على أن الإنسان عبر الأزمان كان ولازال مشكلة فلسفية محورية شائكة ومتفرعة تتمظهر تجلياتها في شتى مناحي الحياة، تتصل أساسا بطبيعة الإنسان وتركيبته، وعلاقته بذاته وبالآخرين، بل وبالعالم الخارجي عموما. هذه العلائق المتشابكة أفرزت مشكلات فرعية ارتبطت أساسا بالمسائل الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والعلمية وحتى الميتافيزيقية - سواء في حدودها المحلية القومية المنغلقة، أو في عالميتها وكونيتها المنفتحة- وأضحت مسائل مركزية في تاريخ الفكر الإنساني الحديث والمعاصر خصوصا في ظل الثورة العلمية والتكنولوجية المتعاظمة في جميع مجالات المعرفة ، وما أحدثته من صدمات قوية، وما تركته من ارتدادات عنيفة مست الماهوي والمقدس في الإنسان. في تلك اللحظة تحديدا اكتشف الإنسان عظمته وسطوته اللامحدودة حينما استشعر في ذاته حرية أكبر ومقدرة أكثر في التعامل مع الكون والسيطرة عليه، وفي الوقت نفسه اكتشف بؤسه ومعاناته وكيف تحول في اللحظة ذاتها إلى شيء وسلعة تتملكه ثقافة الاستهلاك والمقاصد البراغماتية، مفتقرا إلى منظومة أخلاقية وقيمية ثابتة توجه مساره، وتحدد له غاياته ومقاصده، وتضبط أعماله وعلاقاته.

إنها الوضعية التي آل إليها الإنسان الحديث والمعاصر المعولم والمحكوم بآليات العقل الأداتي، والمفتون بغريزة السيطرة على الآخر المغاير وذلك باختراق بنيته وهويته الثقافية، وتكريس نزوعه صوب الاستلاب والهيمنة، بما يؤدي إلى محو الهوية الآخر الحضارية، وطمس الخصوصية الثقافية للمغاير وبالخصوص الآخر المسلم. إنها **الكونية** كأمر واقع ومفروض من قبل نظام عالمي غربي لا يعترف إلا بالغلبة والسيطرة والهيمنة بشتى السبل والأدوات. هذه الحالة التي آل إليها المجتمع الإنساني اليوم شكّلت مسألة مركزية في المشروع الفكري للفيلسوف والمفكر **طه عبد الرحمان**، باحثا في أسبابها وغاياتها، ومتتبع لمساراتها وامتداداتها، وناقدا لمناهجها ومقاصدها وقصور آلياتها، وكاشفا عن مفاسدها وآفاتها وآثارها على الآخر المغاير ثقافيا، والمتمايز حضاريا. وفي الوقت ذاته محددا الآليات والسبل التي بمقتضاها تتمكن الأمم المغايرة خصوصا الأمة الإسلامية من أن تصون هويتها ومقوماتها الثقافية، وتجيب بذلك على أسئلة زمانها، وتتطلع إلى التنبيه إلى تغيير هذا الواقع المفروض قدر الطاقة، وتتصدى لمشروع الكونية العنيفة الذي يحرم الأمم من حقها في الاختلاف. فالأمة الإسلامية تملك حق السبق في هذا التصدي، لما هي ملزمة به أكثر من غيرها من أجل النهوض بالواجبات التي بعثت من أجلها. السؤال الذي يسعى طه عبد الرحمان إلى الإجابة عليه هو: ما هي المفاسد الثقافية والقيمية المتفاحشة التي تتعرض لها الأمة الإسلامية منذ فجر الواقع الكوني؟ وكيف يمكن درء هذه المفاسد، وإبراز الروح الخاصة التي تضمن للأمة المسلمة حق الاختلاف عن غيرها؟

1- الآفات القيمية و المفاسد الثقافية للفكر الكوني

لقد احتل موضوع الثقافة حيزا كبيرا من اهتمامات المفكر طه عبد الرحمن، ذلك كون الثقافة لا تقتصر على تحديد هوية الأمة الإسلامية فقط ،بل لأن الثقافة تعد المحرك الذي ينبغي أن تعتمد عليه هذه الأمة في تغيير واقعها والاتجاه به صوب العالمية لما تحوزه من سمات أخلاقية وقيمية تؤهلها لأن تكون عالمية وهذا ما نلمسه في تعريف طه عبد الرحمن للثقافة حيث يقول: "هي جملة القيم التي تقوم الاعوجاجات الفكرية والسلوكية داخل الأمة على الوجه الذي يحدد اتصال الفكر والسلوك بأسباب هذه القيم في عالم الآيات، وبالقدر الذي يمكن هذه الامة من استرجاع قدرتها على الإصلاح والإبداع، طلبا لتنمية الإنسان والارتقاء به في مراتب الكمال العقلي والخلقي"[1].

وفي موضع آخ يقول بأنها: "ذلك الإنتاج الخطابي والسلوكي المُستند إلى قيم قومية حية. أي قيم قومية مرغوب فيها ومطلوب العمل بها"[2]. فالثقافة هي روح الأمة وقوامها، حيث في جوهرها يقترن الفكر بالعمل مما يؤدي الى نشوء عوامل الاستنهاض لدى الأمة وولوج عالم التقدم بحيث يكون التقدم الذي تقوده الأمة الإسلامية مغاير لذلك التقدم الكوني الذي قاده الغرب وما اصطلح عليه بمسميات متعددة كالعولمة والحضارة العالمية وغيرها والتي كلها تصب في مصب واحد هو الكونية كمهيمن على الخصوصية وماحي لكل مقومات للقومية.

إن تماهي الحداثة والعولمة وانصهارهما في بوتقة واحدة أحدث التباسا بين مفهومي العالمية والكونية، حتى أضحى البعض يستخدم مصطلح الكونية كمرادف لمصطلح العالمية حيث وقع الخلط بينهما، نظرا لاشتراكهما في الكلية، والشمولية، هنا يجيب بودريار بضرورة التمييز بينهما محددا مفهوما للكونية فيقوله "هناك تشابه خادع بين لفظتي العالمي والكوني. إن الكونية هي كونية حقوق الإنسان، والحريات، والثقافة، والدمقراطية"[3]، فالكونية هي أمر مخالف للخصوصية وقريبة من العالمية والأممية والكلي والشامل وتدل على مجموعة من القيم التي يحصل حولها إجماع واتفاق من طرف كل الناس مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان. فالكونية هي كونية القيم الإنسانية الثابتة، وهي مشروع يعمل على توحيد الإنسانية وتأصيل ما هو إنساني في الإنسان، كالاعتراف بالاختلاف والتنوع كقوانين تحكم الكون، وضرورة الانفتاح على الأخر والتواصل معه مع احترام الخصوصيات.

بينما طه عبد الرحمان حدد مفهوم الكونية فلسفيا فردها إلى مدلولين: الأول الكونية تعني الكلية ويقصد بالكلي هنا ما يشمل جميع أفراد الإنسان، من حيث كونهم كائنات عاقلة، ومن ثم فالكلي هنا بهذا المعنى يقابله الجزئي الذي لا يستغرق أفراد النوع الإنساني. أما المعنى الآخر لمفهوم الكونية فهو العالمية، وبقصد بالعالمي ما يصدق على جميع أقطار المعمورة، من حيث هي دول قائمة بذاتها، وبهذا المعنى للعالمي يكون مقابله المحلي[4]. ومنه يمكن القول أن الكونية تعني الشمولية والعمومية، وتقابلها الخصوصية. وعليه فالفكر الغربي - الأوروبي والأمريكي- مهيمن متسلط على الغير بدعوى تحقيق العالمية المعولمة وتوحيد الأمم تحت عباءة خدمة الحاجات الإنسانية، فالعالمية متجاوزة لضيق الكوني، لا تتحقق إلا بقدر ما تحمل في طياتها بذور الجزئي، وهذا ما وضحه كارل ياسبرز حيث يقول: "إن الانفتاح على العالمية ليتوه في الفراغ إذا استغنى عن الرؤية العيانية واكتفى بالتعميمات المجردة، كذلك تضل الرؤية العيانية للجزئي في الغموض والاضطراب الذي لا حد له إذا لم تستند إلى العالمية"[5].

إن نزوع الغرب الكوني المعولم في تدمير القيم الإسلامية وإقصاءها، إنما هو موقف من الإسلام باعتباره قوة وفعالية عالمية تشكل خطرا على مركزية الغرب، هنا يقول طه عبد الرحمن: "ثم مضى يبث في الناس أن قيم الإسلام هي أشد القيم مخالفة لقيم الحضارة الغربية، و إذا صح هذا صح معه أيضا أن انبعاث هذه القيم من جديد مع تحرر الشعوب الإسلامية و مع تطلع بعضها إلى فرض خصوصيته لا بد وأن يضر أشد الضرر بأهداف هذه الحضارة، توسعا في الآفاق ووضعا للقيم الكونية، ولا سيما أن النظام القيمي للحضارة الغربية بعد انتهاء الصراع الايديولوجي بين أطراف هذه الحضارة غير الإسلامية، انفرد بتمام الهيمنة والتأثير على الصعيد العالمي"[6]، فالكونية وفق الأيديولوجيا الغربية المعولمة تحمل بين ثناياها غرائز التملك وهوس التسلط، الأمر الذي يحملنا على اعادة النظر في العلاقة بين الثقافة والكوني، إذ عبر عن ذلك إدواردو بورتيلا بقوله: "بكل حال، لم يعد من الممكن في النص الحاضر أن تبنى الثقافة خارج ذلك التوتر

البنيوي والوجودي والحيوي، بين الكوني والإقليمي والقومي... وقد رأينا في القرن العشرين ثقافات تعتبر من أكثر الثقافات تطورا تنساق إلى البربرية، أي ثقافة الإقصاء تقود حتما إلى إقصاء الثقافة"[7].

ما يحملنا على القول بأن الهوية الغربية أصبحت متسلطة بحيث أفضت إلى تصدع العالم الثقافي، لانفصالها عن القيم الأخلاقية الدينية. وبتطور غريزة النزوع صوب الهيمنة بمقتضى أسس العولمة تصبح الفكر فكرا واحدا، ومجتمعا واحدا ينكر وجود المخالف اصطلح عليه طه عبد الرحمان بـ"الفكر الأحدي" المسكون بآفة إنكار حق الأمم في الاختلاف، ما أوقعه في آفات أخلاقية، على رأسها "آفة الوقاحة" وما ترسب عنها من تصلب فكري لا تواصل فيه ولا حوار بل سيادة فكر أحادي الجانب يفرض مفاهيمه، أحكامه، قيمه، ويسميه طه بـ"التصلب الاستعلائي" و"الاختلاف الفكري الصلب" ويعرفه بقوله: "وهو الاختلاف الذي يقع بين أمتين اختارتا في التعامل الفكري بينهما طريق التعاون؛ كما أن التعاون لا يمنع من إتيان المنكر، جاز أن تنتقل فيه الصلة الفكرية بين الأمتين المتعاونتين من رتبة التواصل الحقيقي... إلى رتبة التوصيل بحيث تلقي إحداهما بفكرها إلى الأخرى ولا تتلقى منها فكرها"[8].

ويجمع أغلب المهتمين بالمسألة الثقافية على أنه لا يستقيم الحديث عن الثقافة إلا في علاقتها بالعولمة، حتى أصبح الكلام لا يخرج عن دائرة ثقافة العولمة التي تهدف أساسا إلى تكريس النموذج الغربي الرأسمالي في شتى المجالات وفي مقدمتها المجال الثقافي، وما يلاحظ هنا هو اللعب على وتر الحرية الفردية و حقوق الإنسان و غيرها من الدعوات.فالغرب الكوني المتمركز حول ذاته يرمي إلى تحقيق أهدافه بكل الوسائل الممكنة، ويضعها على رأس مشاريعه وسياسته ومنها فرض التبعية من خلال الاختراق والغزو الثقافيين وتخريب قيم الآخرين واستقطاب الأجيال الصاعدة بدغدغة غرائزها وتوجيه ميولها والتركيز على ما هو في سطحي لحصرها في حيز السطح من الاهتمامات والمهام والتطلعات مستفيداً من فاعلية التفوق والقوة والسيطرة والثروة التي لديه في هذا المجال للوصول إلى زعزعة الثقة، ثم محو الشخصية ومقومات الآخر: اللغة والدين وبقية السمات والعادات والتقاليد والأعراف ومكونات الذاكرة التاريخية للأمة[9].

كما يجمع أغلب المشتغلين في حقل الثقافة على العلاقة العضوية بين العولمة والأيديولوجيا الأمريكية. فالعولمة تسعى إلى سيطرة القيم الغربية الأمريكية على العالم، وسيادة النظام العالمي الواحد، وبالتالي إضعاف فكرة السيادة الوطنية والقومية. فالنمط السائد حاليا هو العولمة الأمريكية بمعنى أمركة العالم، فالولايات المتحدة الأمريكية أعلنت أنها ستعمل على نشر القيم والسلوك الأمريكي ونمط الحياة الأمريكي في العالم كله وهو ما يفتح باب الغزو للشعوب وعقائدها وثقافتها. فالعولمة بالرغم من الصبغة الاقتصادية لها فإنها تعمل من أجل أهداف أخرى تطال ثقافة الشعوب وهويتها القومية والوطنية وخصوصياتها، وترمي إلى تعميم نماذج وأنماط من السلوك وفرض منظومات من القيم وطرائق التفكير، ومن ثم فهي تحمل ثقافة تغزو بها ثقافات ومجتمعات أخرى وتؤدي إلى تخريب منظمات وقيم وإحلال قيم أخرى، ولا يخل ذلك من توجه استعماري جديد يتركز على احتلال العقل والإرادة وجعلهما يعملان وفق أهداف المستعمر وفي إطار خططه ومصالحه مع تحييد قوة الدولة أو إنهاكها واستلابها وانتزاع مقومات حضورها وتأثيرها .وهنا يقدم طه عبد الرحمن تعريفا مجملا للعولمة فيعتبرها بأنها تعقيل العالم بما يجعله يتحول إلى مجال واحد من العلاقات بين المجتمعات و الأفراد عن طريق تحقيق سيطرات ثلاث "سيطرة الاقتصاد في حقل التنمية"، و "سيطرة التقنية في حقل العلم" و "سيطرة الشبكة في حقل الاتصال"[10]. وعلى هذا الأساس يتضح أن العولمة حسبه ليست حالة قائمة بالعالم، و إنما هي فعل مؤثر فيه بكليته، وأثر هذا الفعل هو التوجه نحو توحيد العالم بأكمله فيما يسمى "القرية الكونية" أو "المجتمع الكوني" ومنه تدجين الثقافات والحضارات

العصية عن الاحتواء وفي مقدمتها الأمة الإسلامية والدليل ما تعرضت وتتعرض له الأمة المسلمة منذ فجر الواقع الكوني أي منذ فترة الاستعمار والاستيطان الأوروبي إلى طوره الأخير المتمثل في العولمة الذي يشهد ظهور الاستعمار الإمبريالي الأمريكي من مفاسد ثقافية و قيمية عنيفة بمبرر صدام القيم كذريعة لبسط السلطان وفرض الغلبة . ويوجز طه عبد الرحمان أشكال المفاسد الثقافية وأنماط الآفات القيمية المسلطة على الأمة المسلمة من أجل الهيمنة والاحتواء في مايلي:

أ- الاستتباع الثقافي[11]: يتجلى هذا النمط من الإفساد الثقافي والقيمي في التطبيع مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري لإرادة الواقع الكوني المفروض، ومع التطبيع مع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري يأتي فقدان الشعور بالانتماء لوطن أو أمة أو دولة، وبالتالي إفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى. ومن مرتكزاته إيقاع الأفراد في الدول النامية بين ثقافتين متناقضتين، أي بين نظامه الاجتماعي وبين ما يأتيه من ثقافة عبر الفضائيات والشبكة الدولية للمعلومات من ثقافة مادية متطورة، وإزاء هذا يحصل التشوهات الذهنية والمعرفية والسلوكية عند الأفراد المتلقين للثقافة الوافدة الجديدة، وهذا يؤدي إلى جعل تفكير الفرد تفكيراً ثقافيا ماديا، وجعل سلوكه الاجتماعي يصدر عن تقليد، ودون وعي أو بصيرة، أي صياغة ثقافة عالمية لها قيمها ومعاييرها هي ثقافة السوق. وتجاوز الثقافة النخبوية، وسلب الخصوصية الثقافية، وقطع صلة الأجيال الجديدة بماضيها وتراثها، وتدمير الحضارات، والتأكيد على النجاح الفردي، وتجميع الثروة، وتهميش الثقافة الوطنية، واحتكار الصناعة الثقافية، ووضع حالة من الإبهار أمام المثقف الوطني وإنهاء رقابة الدولة على وسائل الإعلام، والتخلي عن الخصوصيات الوطنية، وإضعاف البعد الفلسفي للتربية، وتوجيه المعرفة العلمية بحسب القوى التي تمتلكها، والتأثير في اتخاذ القرار التربوي، وربط العلماء والباحثين بولاءات معينة لقوى نافذة وضاغطة، ونشر مفاهيم براجماتية.

يقول طه عبد الرحمان: "في طوره الأوروبي أن يخضع الشعوب المسلمة لسياسات تربوية وتعليمية تعزز استيطانه وسلطانه، وتنال من القيم الإيمانية والأخلاقية التي تحملها ثقافات هذه الشعوب والتي تبقي على صلتها بعالم الآيات في الكون، حتى كادت أن تجعل هذه الثقافات تنـزوي وترضى بوضع لا يتعدى وضع "الطقوس الشكلية" أو "التقاليد الشعبية" التي تثير فضول السائح وتستحق رفوف المتاحف، وبفضل هذه السياسة التعليمية الاستعمارية، تمكن "الإنسان الكوني" - في هذا الطور الأول- من أن ينشيء من أبناء هذه الشعوب نخبا أشرب أفرادها في قلوبهم ثقافته القائمة على النظر الملكي، لا النظر الملكوتي، حتى إذا رحل عن أراضيهم راغما، تولوا عنه تثبيت هذه الثقافة المنفصلة من ذويهم ومواطنيهم، وذلك بحجة أنها تضمن نظر ملكوتي يضر بكل تقدم، هذا مع ممارسته لألوان من الضغوط على أصحاب القرار والنفوذ في هذه الأوطان الإسلامية لكي يستمروا في سلوك نهجه التثقيفي الانفصالي"[12].

فالمشروع الكوني يتأسس على تسخير القوى المتغربة الداخلية من الكتاب ورجال الإعلام، ورجال التربية لصالحه، تجنيد المفكرين وهؤلاء الكتاب يروجون للأفكار الكونية، ويؤكدون على أن الشعور بالولاء لأمة أو وطن قد أصبح من مخلفات الماضي التي يحسن إهمالها ونسيانها. ويؤيدون التدخل الأجنبي في التفكير وطرائق الحياة على شعوب العالم، والتدخل في المناهج التعليمية في الدول المختلفة ومنها الإسلامية، لتغيير عقول الناشئة، وتذويب هويتهم الثقافية والاعتقادية، ومن ثم تهيئتهم لتقبل ما تبث وسائل الإعلام الأمريكية من قيم مادية هابطة، فالإحصائيات الرسمية تؤكد على أن في أمريكا وحدها أكثر من عشرين ألف جامعة ومعهد، مهمتها القيام بالبرامج الثقافية التي ترسخ لديهم الثقافة الغربية، وتستخدمهم وسائل إضافية للكونية. لقد نجحت أمريكا في تطوير صناعة ثقافية موجهة لشريحة الشباب داخل وخارج أمريكا،

وهم الشريحة الأوسع على مستوى العالم، وهم رجال المستقبل الذين سيشغلون في مجتمعاتهم مواقع التأثير والنفوذ. ولقد فتحت أمريكا معاهدها وجامعاتها أمام الطلبة من أنحاء العالم، وهؤلاء يشكلون النخب في بلدانهم بعد عودتهم إليها بما يحملون من الأنماط الثقافية وطرق التفكير، المقتبسة من أمريكا.

ب- التخريب الثقافي: وهذا النمط الاستلابي لا يقل خطورة عن سابقه، فلقد ثبت لصناع الواقع الكوني عبر مراكزهم وبحوثهم وجامعاتهم ومستشرقيهم من أن الأمة المسلمة مستعصية على الخضوع والاستكانة إذا حافظت على هويتها الإسلامية، ومن ثم فالطريق الوحيد لإخضاعها يتمثل في القضاء على تفرد شخصيتها، وإلغاء دينها ومنهجه للحياة الذي يبعث في الأمة الرفض لكل أشكال الاحتلال والسيطرة، فالحضارة الإسلامية بعقيدتها وشريعتها، ونظام أخلاقها، وإنجازاتها التاريخية هي النقيض الوحيد الشامل لفلسفة الواقع الكوني، وأنظمته وقيمه الفاسدة المتهافتة. التباينات بين الحضارات كما يؤكد صمويل هتجنتون ليست حقيقية فحسب، بل إنها أساسية ، فالحضارات تختلف عن بعضها البعض بفعل التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والأكثر أهمية عامل الدين، فأصحاب الحضارات المختلفة يعتنقون معتقدات مختلفة عن العلاقة بين الله تعالى والإنسان وبين الفرد والجماعة وبين المواطنين والدول ة وبين الآباء والأبناء وبين الزوج والزوجة، وذلك بالإضافة إلى رؤى مختلفة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسئوليات والحرية والسلطة والمساواة، وهذه التباينات لن تختفي في القريب، فهي أكثر أصولية من الاختلافات بين الأيدولوجيات والأنظمة السياسية.

وفي هذا يقول: "فالعلاقات بين الحضارات سوف تكون عدائية بين الغرب والآخرين، وعلى وجه الخصوص بين الغرب والحضارة الإسلامية الصينية: "في العالم الناشئ، لن تكون العلاقات بين الدول والجماعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة وثيقة، بل غالباً ما ستكون عدائية، بيد أن هناك علاقات أكثر عرضة للصراع من غيرها، على المستوى الأصغر فإن أشد خطوط التقسيم الحضاري عنفاً هي تلك الموجودة بين الإسلام وجيرانه الأرثوذوكس والهندوس والأفارقه والمسيحيين الغربيين. وعلى المستوى الأكبر فإن التقسيم السائد هو بين الغرب والآخرين مع أشد الصراعات القائمة بين المجتمعات الإسلامية وبعضها من جهة، والمجتمعات الإسلامية والغرب من جهة أخرى، ومن المرجح أن تنشأ أخطر الصراعات في المستقبل نتيجة تفاعل الغطرسة الغربية والتعصب الإسلامي والتوكيد الصيني...". [13]

إن السياسة الكونية المعاصرة في اعتقاد هينتجنيون هي عصر حروب المسلمين، فالمسلمون يحاربون بعضهم بعضا، كما يحاربون غير المسلمين، أكثر مما يفعل أصحاب الحضارات الأخرى. لقد حلت حروب المسلمين محل الحرب الباردة باعتبارها شكلا أساسيا للصراعات الدولية، هذه الحروب تشمل الحروب الإرهابية، وحروب العصابات، والحروب الأهلية، وصراعات المصالح. هذا كله يدخل في إطار صراع الحضارات والثقافات سواء بين المسلمين أنفسهم أو بين الإسلام والغرب. فالواقع الكوني الأمريكي في ظل الأحداث العالمية المتسارعة خصوصا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ، يروج لفساد الإسلام والمسلمين، فالإسلام هو دين التخلف والإرهاب والتعصب والتزمت والانغلاقية واللاتسامح والتخويف والقهر وهضم للحقوق وكبت للحريات وتمييز بين بني البشر...وكلها مبررات تمت شرعنتها عبر أطروحات فكرية وترويجها عبر أشهر المنابر الإعلامية، ومختلف دور السينما والأفلام والروايات، حيث تم ربط الإرهاب بالإسلام والمسلمين، وتصوير الإسلام في المخيال الغربي على أنه الخطر الذي يهدد مستقبل العالم الحر، ومنه تبرير كل السياسات العدائية التي قادها العالم الغربي ضد العالم الإسلامي وإزاء كل مرجعيات المسلمين الثقافية والعقدية والتاريخية، من أجل فرض النظام العالمي الجديد بمنطق العنف والقوة من أجل

الهيمنة. فهذا الرئيس الأمريكي "ريتشارد نيكسون" يعلن صراحة عدائه للإسلام والمسلمين، وعدم احترامه للمغاير أو المختلف، يقول: "إن معظم الأمريكيين ينظرون نظرة موحدة إلى المسلمين على أنهم غير متحضرين، وسِخين، برابرة، غير عقلانيين"[14].

إن الفكر الغربي في تأسيسه للنظام العالمي الجديد المبنى على الرؤية الواحدة المهيمنة يؤمن بأن أمامه تحديات متعددة ومتنوعة ومعقدة على رأسها أن الإسلام عدو يهدد الديمقراطية الحرة التي تتميز بدرجة عالية من المعقولية، وأن الإسلام لا يقبل بالحكم المدني والعلماني وبتعددية المعتقد، وإذا أرد المسلمون الانخراط في النظام العالمي الجديد عليهم بمقاومة مراجعة مقولات الإسلام وقيمه بما يتوافق ومقولات الواقع، وقيم الديمقراطية العالمية. فالنظام العالمي الجديد يتمتع بالتفوق التقني والعلمي والسياسي والاقتصادي، يُمكِّن من تحقيق الرفاهية لكل البشرية، وكل الثقافات معنية بالانخراط فيه لتتمكن من تجاوز تخلفها. فالنظام العالمي الجديد ليس موضع اختيار وإنما هو حتمية مفروضة على كل المجتمعات، لأنه يتميز بمزايا جديدة غير متوفرة في الأنظمة الفاشلة التي أثبتت عجزها، إنه نظام مؤسس على الحرية، والرأسمالية والديمقراطية، كما أنه قادر على صنع الثورات على مستوى المعرفة والتكنولوجيا والاتصال، وقادر على جعل العالم قرية واحدة، بفرض نظام شبكة التواصل المعولم[15].

لقد استنفد الغرب مُبرراته لاستعمار الشرق والبلاد العربية والإسلامية في القرن الماضي، ولم تبق وسيلة من وسائل استغلال الدين المسيحي عبْر عملية التبشير الكبيرة، التي كانت تسبق أو ترافق الحملات العسكرية، ولم يستطع أن يجد حجة؛ لكي يعيد استعماره من جديد، فلما وجد أن نسبة لا بأس بها من الشعب الأمريكي والأوروبي بدا يكتشف حقيقة الإسلام، كدين سماوي، وأخذ يدخل الإسلام جماعات ووحدانا، شعر بالخطر من أن يصل هذا الدين إلى أبوابه الداخلية، فكان عليه أن يجد أي وسيلة توقف زحفه على أراضيه، فلم يجد أي وسيلة أنجع من وصف الإسلام بالإرهاب، كوسيلة دفاعية وقائية لوقف انتشار هذا الدين، ولما جاءت بعض الأحداث تصلح للتوظيف في هذا المجال، وظفها لتخدمه في هذا الجانب، وهكذا وصل الأمر إلى أن يصفَ رئيس الولايات المتحدة الإسلام بأنه دين فاشي، ويجب شن حملة صليبية عليه، وأن يصف البابا الرسول الكريم بصفات سيئة.

يقول طه عبد الرحمان: "يتجلى هذا التخريب في نسف قيم الثقافة الإسلامية بكل الوسائل المتاحة لديه، نذكر من هذه الأعمال التخريبية التشكيك في الثوابت العقدية للدين الإسلامي، والتطاول على مقدساته بدعوى تحري النـزاهة والموضوعية، وكذا الطعن في الحقائق التاريخية التي تعلقت بالحضارة الإسلامية بدعوى التزام مقتضيات النقد العلمي، ونذكر منها أيضا تشويه صورة المسلم في الكتب المدرسية والروايات الشعبية والأشرطة المصورة ووسائل الإعلام بمختلف الأقطار الغربية، فضلا عن الافتراء على الشرع الإسلامي في أمور التخويف من الإسلام بشتى الصور، فهو "دين إرهاب" و"دين تطرف" و"دين كراهية للغرب"، وأنه أضحى خطرا على الدول الغربية يهدد مصالحها في كل بقاع العالم"[16].

إن الخطابات التي يكرسها الفكر الغربي عبر تاريخه إنما هي في الأصل أساسات لنزعة التمركز حول الذات، حيث سعت الأيديولوجيا الغربية إلى تقديمه في صورة خالصة من الفوقية والاستعلائية، وإبرازه على أنه نموذج مكتمل في مقابل الشرق الدوني الذي يجب أن يبحث عن اكتماله في هذا الغرب، فالمصطلح قصد إلى إقصاء الآخر المغاير وتحويله إلى مكون هامشي، حيث تتحدد أهميته ومكانته أو تعدل حسب مدى مطابقته لمنظور الأنا وتصوراتها. فأهم مقررات المركزية الغربية كما يرى عبد الله إبراهيم: "هو إقرارها بوجود تاريخ خاص مطلق للغرب، أدى إلى ظهور حضارة غنية ومتنوعة، وأن ما وصل إليه الغرب من

تقدم وازدهار لن يكون عند باقي الأمم إلا بإتباع خطواته، والأخذ بالأسباب ذاتها التي أخذ بها الغربيون، وليس أمام تلك المجتمعات إلا التخلص من خصوصياتها الثقافية، لأن تلك الخصائص هي المسؤولة عن تخلفها، وهي المعيقة لتطورها"[17].

هذه القرائن وغيرها تؤكد يقينا على أن الغرب الأوربي قد رمى بكل ثقله التاريخي، من أجل فرض واقع الهيمنة وضمان التفوق على امتداد التاريخ القادم ، بحيث يبقى الغرب وإلى الأبد هو المركز وغيره الأطراف، والشاهد على هذا هو الواقع المفروض عبر تغلغل الحضارة الغربية في العالم على مستوى أكثر عمقا، يعني مستوى القيم الحضارية والثقافية بغية فرض شروط ثقافية وحضارية ذات صبغة عالمية، فالتفكيك الثقافي المحكم الذي يمارسه الغرب باسم الحداثة يكون قد قطع أشواطا في مهمة تدمير الكيانات الحضارية والثقافية، وتعميم النموذج الغربي بحيث وجدت بعض الشعوب نفسها أمام حقيقة مرة هي أنها لم تعد قادرة على تقليد النموذج الثقافي الغربي الوافد، وفي الوقت ذاته لم تعد قادرة على استعادة الأواصر والأبنية الموروثة التي تشكل عماد أصالتها، فهي بذلك تعيش في غربة عن ذاتها وعن محيطها. يقول عبد الوهاب المسيري: "إن الثقافة الغربية تريد من العالم أجمع أن يعتمد المعايير المادية النفعية الغربية كأساس لتطوره ،وكقيمة اجتماعية وأخلاقية وبهذا فإن ما تبقى يجب أن يسقط ، وما تبقى هاهنا ليست خصوصية قومية بل مفهوم الخصوصية نفسه،وليس تاريخا بعينه، بل فكرة التاريخ، وليس هوية بعينها وإنما كل الهويات ،وليس منظومة قيمية، بل فكرة القيمة، وليس نوعا بشريا ،وإنما فكرة الإنسان المطلق نفسه"[18].

ج- التنميط الثقافي: إن من أخطر أهداف المشروع الكوني ما يعرف بالعولمة الثقافية، التي تتجاوز الحدود التي أقامتها الشعوب لتحمي كيان وجودها، وما له من خصائص تاريخية وقومية وسياسية ودينية، ولتحمي ثرواتها الطبيعية والبشرية، وتراثها الفكري الثقافي، حتى تضمن لنفسها البقاء والاستمرار والقدرة على التنمية، ومن ثمّ الحصول على دور مؤثر في المجتمع الدولي. فالعولمة الثقافية تقوم على تسييد الثقافة الرأسمالية لتصبح الثقافة العليا، كما أنها ترسم حدودا أخرى مختلفة عن الحدود الوطنية مستخدمة في ذلك شبكات الهيمنة العالمية على الاقتصاد والأذواق والثقافة. هذه الحدود كما يقول الجابري هي: "حدود الفضاء (السبرنيتي) والذي هو بحق وطن جديد لا ينتمي لا إلى الجغرافيا ولا إلى التاريخ، هو وطن بدون حدود، بدون ذاكرة، إنّه وطن تبنيه شبكات الاتصال المعلوماتية الإلكترونية"[19].

فالعولمة الثقافية بهذا المعنى في خدمة السيادة المركزية، والهيمنة الغربية (النظام العالمي الجديد بقيادة أمريكا)، وتوطيد معاني العولمة الاقتصادية والسياسية، ونقل هذا النموذج الثقافي العالمي إلى باقي الشعوب الأخرى. إنها تهدف إلى نزع الخصوصية الفردية ومحو الهوية الذاتية للمجتمعات، خاصة المجتمعات العربية الإسلامية، ذلك أن أنصار العولمة لا يعترفون بالهوية الشخصية، سواء هوية الفرد الواحد، أو المجتمع الواحد، أو الدولة الواحدة، أو الأمة الواحدة. تهدف العولمة إلى توحيد الثقافة العالمية، وصهرها في ثقافة واحدة، وإلغاء التعددية الثقافية وحق التنوع الثقافي. يقول طه عبد الرحمان: "يسعى "الإنسان الكوني" -لا سيما في طوره الأمريكي- بكل ما أوتي من قوة إلى فرض رؤيته الخاصة ومعاييره الثقافية على باقي الأمم، معممًا عليها نمطه الخاص في التفكير والسلوك، وذلك دعمًا لهيمنته الثقافية في ظل هيمنته الاقتصادية المتمثلة في السيطرة على رؤوس الأموال والأسواق التجارية والشركات العالمية؛ وهكذا، يصير النظام الثقافي العالمي الجديد عبارة عن الخصوصية الثقافية للأمريكان معممة على غيرهم من أمم العالم، مما يفضي حتمًا إلى تجريد الإنسانية من التنوع الثقافي والتعدد الحضاري اللذين تنبني عليهما الخصوصيات التي تتميز بها هذه الأمم، صار العالم الإسلامي أكثر من غيره عرضة لهذا التنميط الثقافي

والاجتثاث لمظاهر التنوع والغنى في ثقافته، ناهيك عن منظومته من القيم الإيمانية والأخلاقية على أن هذا التنميط الثقافي الذي يراد بالمسلمين يظل تنميطا شاذا، حيث إنهم يجبرون على أن يأخذوا من ثقافة الواقع الكوني بالجزء الذي ليس هو السبيل إلى نهوضهم الحضاري، فقد قرر أربابه برئاسة الأمريكان أن يمنعوا وصول العلوم والتقنيات المتقدمة إلى العالم الإسلامي، وأن يحرموا شعوبه من الاستفادة منها في تحقيق تطلعاتهم إلى التنمية الشاملة، واضعين القيود على المصانع والشركات، وممارسين الضغوط على الدول والحكومات، ومتهددين كل من يخالف قرارهم بشتى العقوبات؛ ولا يقفون عند هذا الحد، بل يجاوزونه إلى تخريب ما حصله المسلمون بعد جهد جهيد من هذه العلوم والتقنيات، سواء بضربها في مراكزها في الأراضي الإسلامية أو بالعمل على قطع الإمدادات الضرورية لصيانتها والمحافظة عليها، أو بالتهويل من أمرها والتخويف من الدول الإسلامية التي تمتلكها، حتى يحملها ذلك على إيقاف مؤسسات التصنيع أو غلق مراكز البحث فيها"[20].

د- التلبيس الأخلاقي: إذا كانت العولمة، حسب مدعيها، قيمة كونية هدفها الارتقاء بالبشر فإن سلوكيات ومظاهر سلبية عدة مثل العنف والجنس والإدمان والتفكك العائلي، وضعف الوازع الأخلاقي ... صارت تتخذ أبعادا قيمية على أساس أنها قيم من ضمن قيم العولمة الكونية، ومن ثمة يروج لها عبر وسائل الإعلام والسينما العالمية والقنوات الفضائية التي دخلت اليوم إلى كل بيت، مع العلم إ ن شرط الكونية الأساس، في أي حركة تزعم لنفسها تلك الصفة، هو قيامها على أساس الإقناع والقبول التلقائي من قبل كل من ينضوون تحت لوائها، أي لا ينبغي أن يكون القسر والإكراه وراء ذلك الانضواء لن تكون هناك استجابة تلقائية لحركة من الحركات أو دعوة من الدعوات، إلا إذا كانت موافقة للفطرة معبرة عن أشواقها، وقادرة على تفتيق مواهب الناس و تنميتها، بمقتضى ما فيها من قيم محفزة و أحكام ضابطة و حدود رادعة. وطبيعي أن هذا المد القيمي في شكله المنافي لقيم المجتمع المغربي كونيا وإسلاميا ووطنيا، وكما هو بالنسبة لمجتمعات كثيرة، بدأ يحدث شرخا في البناء القيمي الأصيل حسب ما يلاحظ، ويتسبب، تبعا لذلك، في دهورة أو تدمير السلوك والقيم عن طريق بث قيم جديدة من مثل المنافسة المتوحشة المدمرة، والتمرد على ما هو أصيل باسم الحداثة، ونشر الإباحية و قتل الكرامة و الزهد في تقدير الذات، ونشر سلوكيات شاذة من مثل إلغاء الفرق بين المرأة والرجل لا على أساس النوع الاجتماعي (Genre) الذي يتم قبوله كمقاربة منهجية للمساواة و الإنصاف و الحد من دونية المرأة كما كرمها الإسلام، ولكن على أسس أخرى بيولوجية و جنسية، وكذلك قيمة ما يسمى ب "حرية الجسد" وهو سلوك يمنح المرأة حرية التصرف بجسدها من مثل الحرية الجنسية والتحكم في الحمل وفي جنس الجنين والإجهاض وكل ما يتعلق بالإنجاب والجنس وتشكيل الجسد...

ولقد زامن الدعوة إلى هذه القيمة إجراءات مساعدة تدخل ضمن ما يسمى بصناعة الجسد الأنثوي وبنائه، ومنها ترميم البكرة، والاهتمام باللذة الجنسية، والإباحية، والزواج من الجنس الواحد، والمخادنة (المعاشرة الجنسية بين رجل وامرأة من دون زواج شرعي). وقد ساند هذا المد القيمي الجديد سعي لترسيخه على مستوى الوصلات الإشهارية و إيجاد مزيد من المحلات التجارية لتسويق مصنوعات التجميل كالعطور التي تحمل أسماء إباحية و مؤثرة، و الملابس الداخلية والمراهم والأزياء، دون إغفال ترويج الثقافة المدعمة لذلك عن طريق مهرجانات فنية ترسخ ثقافة الجسد والجنس بعيدا عن المقومات الثقافية الأصيلة، وانتشار نوعية مميزة من الثقافة المادية والمعنوية الأمريكية حيث سيطرت الثقافة الأمريكية الشعبية على أذواق البشر فأصبحت موسيقى وغناء مايكل جاكسون، وتليفزيون رامبو، وسينما دالاس هي الآليات والنماذج

السائدة في مختلف أنحاء العالم وأصبحت اللغة الإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية هي اللغة السائدة، وانتشار الأزياء والمنتجات الكمالية الأمريكية في كثير من الدول الإسلامية.

إن المد العولمي يبني استراتيجيته في ترسيخ أهدافه على قاعدة التنميط: فهو يعمل على تنميط قيم المجتمعات التاريخية وخاصة المجتمعات الإسلامية ليجعلها قيما واحدة مشتركة لدى جميع الشعوب. و يمتد هذا التنميط ليمس كل السلوكيات اليومية للفرد، المتمثلة في العلاقات الإنسانية والارتباطات بين أفراد الأسرة والعائلة، وأنظمة القرابة، وأنماط التعايش والتساكن والاستهلاك، والعلاقة بين الجنسين، وطرائق وأنماط العيش في المأكل والملبس والمشرب، والعلاقة بين الإنسان والله، والبعد الأنطولوجي للإنسان... وبعبارة أخرى فإن المد العولمي يعمل على تغيير فلسفة وجود الإنسان التي من خلالها يرى ذاته ويدرك نفسه ويحدد هويته ويرسم علاقته مع الآخر والكون والله. يقول طه عبد الرحمان: "قام الواقع الكوني، في طوره الأوروبي، على مبادئ حداثية ثلاثة تقطع صلتها بالأسباب الروحية للأخلاق: أولها، "مبدأ الاشتغال بالإنسان"، والمراد به -بطريق مفهوم المخالفة- ترك كل اشتغاله بالله، والثاني، "مبدأ التوسل بالعقل"، والمراد به ترك كل توسل بالوحي، والثالث، "مبدأ اعتبار الدنيا"، والمراد به مبدأ ترك اعتبار الآخرة، ومعلوم أن القيم الإيمانية العظمى الثلاث: "الله" و"الوحي" و"الآخرة" هي مصادر الأخلاق للآدميين، ذلك أنه لا أخلاق بغير قيم روحية تسمو بهمة الآدميين، ومن ثم أخرج لنا هذا الواقع الكوني إنسانًا ماديًّا دنيويًّا تتدهور معه أخلاق الإنسان المادي بين أبناء أمته، حتى أفسد عليهم طباعهم ولبَس عليهم في مروءتهم. والآن يخرج لنا إنسانًا غريزيًا إباحيا، حتى كأنه بهيمة عجماء، ذلك أن مختلف القنوات الفضائية والشبكات الاتصالية التي يمتلكها أرباب "الإعلام الكوني" ما فتئت تبث عبر العالم كله من المشاهد والصور ما يندى له الجبين ومن الأحاديث والأخبار ما تتأذى منها الأسماع وتتقزز له النفوس؛ ولما اقتحمت هذه القنوات على المسلمين بيوتهم وعقولهم، فلا مفر من أن يصيبهم من أذى الإنسان الغريزي الإباحي نصيب، فتنحرف سلوكيات بعضهم أو تنحل عرى أسرهم أو تضعف روح الجماعة بينهم، شاهدين على أنفسهم بالخروج عن المرجعية الأخلاقية والوحيية التي تستند إليها ثقافتهم ذات الاتصال"[21].

فالمشروع الكوني يسعى إلى إشاعة ما يسمى بأدب الجنس وثقافة العنف التي من شأنها تنشئة أجيال كاملة تؤمن بالعنف كأسلوب للحياة وكظاهرة عادية وطبيعية. وما يترتّب على ذلك من انتشار الرذيلة والجريمة والعنف في المجتمعات الإسلامية، وقتل أوقات الشباب بتضييعها في توافه الأمور وبما يعود عليه بالضرر البالغ في دينه وأخلاقه وسلوكه وحركته في الحياة، وتساهم في هذا الجانب شبكات الاتصال الحديثة والقنوات الفضائية وبرامج الإعلانات والدعايات للسلع الغربية وهي مصحوبة بالثقافة الجنسية الغربية التي تخدش الحياء والمروءة والكرامة الإنسانية ولقد أثبتت الدراسات الحديثة خطورة القنوات الفضائية - بما تبثه من أفلام ومسلسلات جنسية فاضحة- على النظام التعليمي والحياة الثقافية والعلاقات الاجتماعية ونمط الحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي.

هذه جملة المفاسد الثقافية والآفات القيمية التي سلطت على الأمة المسلمة من قبل الواقع الكوني كما حددها المفكر طه عبد الرحمان متسائلا عن الكيفية التي تدرأ بها الأمة الإسلامية هذه المفاسد وتقلل من أخطارها.

2- آليات درء المفاسد والآفات الثقافية للفكر الكوني

لقد انشغل طه عبد الرحمن في مشروعه الفكري الحضاري بمشروعية الاختلاف أيا كان هذا الاختلاف فلسفيا أو فكريا، باعتباره حقا يوجبه التنوع الثقافي والحضاري، ومن ثم للرؤية العربية والإسلامية

كما للغربية الحق في إبراز خصوصيتها وفرادتها المتمثلة في طرائق النظر للكون والإنسان. أما الذات التي تذوب تدريجيا في ذات الآخر باقتباس مفاهيمه وأدواته وقضاياه بغية تحديث الذات، ينتهي بها الأمر إلى النظر إلى الذات بعين الغير، والنظر للغير بعين الغير كذلك، هذه الذات بنظر طه تمتلك هوية مائعة أو سائلة أو مغتربة أو قلقة. ومن أجل درء الآفات والمفاسد الثقافية والخلقية للعولمة يقترح طه عبد الرحمان -وبصورة مجملة- بأن ينهض الإسلام بدرء آفة الإخلال بمقتضى التزكية، وسيطرة الاقتصاد في مجال التنمية من خلال قانون ابتغاء الفصل بحيث لا تحصل التنمية الصالحة إلا بتكامل المقوم الاقتصادي مع المقومات الأخرى للتنمية مع دوام اتصاله بالأفق الروحي "وعلى الجملة فإن عنصر تكامل المقومات الذي ينبني عليه قانون ابتغاء الفضل الإسلامي يدخل القيم الأخلاقية في صلب عملية التنمية الاقتصادية، كما أن عنصر الاتصال الروحي، يدخل فيها القيم الروحية، ومتى ازدوجت التنمية الاقتصادية بالقيم الخلقية، والقيم الروحية، ارتقت إلى مقام التزكية الحق، ولدرء آفة الإخلال بمقتضى العمل التي وقعت فيها سيطرة التقنية في مجال العلم،يجب العمل بقانون الاعتبار، بحيث لا يحصل العلم النافع إلا بالنظر في حكمة الشيء قبل سببه وفي مآله قبل حاله"[22].

أ- التحرر الثقافي: يؤكد طه عبد الرحمن على أن الأمة الإسلامية على الرغم من أنها حققت التحرر الاستعماري إلا انها لم تتخلص بعد من السيطرة الثقافية الاستعمارية التي خلفها المستعمر في أوطانها، في اليوم مطالبة أكثر مما مضى باسترداد حريتها الثقافية ،لان التحرر الثقافي لا يقل أهمية على التحرر السياسي، حيث يقول في هذا الصدد: "ينبغي ان يتولى التثقيف الإسلامي ترسيخ مفهوم التحرر الثقافي في عقول الجمهور الكوني بما يجعله يلقى من المشروعية والتأييد والنصرة في أوساطه ما أصبح يلقاه فيها مفهوم التحرر السياسي"[23]. فالتحرر الثقافي كفيل بأن يكشف للعالم عن فداحة الأضرار التي تلحق الإنسانية جمعاء وعن خُبث الأساليب التي يتبعها المُتسلط في بسط سلطانه الثقافي على الشعوب. وهي الفكرة نفسها التي أسس لها محمد عابد الجابري حين طالب بصياغة إعلان عالمي لأخلاقيات العولمة، وتشكيل لجنة دولية من مختلف الديانات والمذاهب الفكرية لوضع ميثاق أخلاقي عالمي يلتمس قوة الإلزام من المنظمات الدولية الحكومية ويكون النظام العالمي الجديد بمثابة الضامن القانوني والأخلاقي لمسألتي التنوع والاختلاف والحامي للخصوصية[24].

ب- التكافؤ الثقافي: يرى طه عبد الرحمن إن الثقافة الإسلامية لها من المقدرة ما يكفيها على تحقيق الكفاءة الثقافية على مستوى كوني ذلك لان الكفاءة الاقتصادية لا تتطلب بالضرورة الكفاءة الثقافية حيث يقول: "قد يكون الشعب الواحد كفئا ثقافيا من غير أن يكون كفئا اقتصاديا كما أنه قد يكون كفئا، اقتصاديا من غير أنى كون كفئا ثقافيا"[25]، فالكفاءة الثقافية غير مرتبطة بالكفاءة الاقتصادية والأمة الإسلامية رغم تخلفها الاقتصادي إلا أنها تتميز بالكفاءة الثقافية لأنه الكفاءة ملكوتية روحية بالدرجة الأولى على عكس الكفاءة الاقتصادية التي هي كفاءة ملكية لأنها تستند إلى المادة وعليه فان الكفاءة تستلزم مبدأ التكافؤ الذي يقتضي المنافسة بين الشعوب وليس الغاية من هذه المنافسة تحقيق التطابق الثقافي بل أن التكافؤ يفرض المغايرة فالشعب الواحد قد يكافئ غيره في جوانب ثقافية ليست من جنس الجوانب الثقافية التي يختص بها هذا الغير.

ج- التظلم الثقافي: لقد تعرضت الثقافة الإسلامية إلى العديد من المظالم الأجنبية مما جعلها تقف في الهامش بالرغم من إنها تحمل نواة الثقافة العالمية، فالمثقف الإسلامي اليوم لا بد له من أن يقف في وجه هذه المظالم ويسعى إلى رد الاعتبار للثقافة الإسلامية والدفاع عنها على المستوى العالمي حتى يعلم الجمهور

الكوني "إن من حق الشعوب التي يعتدي على تاريخها ودينها ومقوماتها الثقافية، فعلا أو قولا، أن تشكو الظلم الذي تتعرض له، وتطالب بأخذ الحق وتعويضها عن الأذى الذي لحقها"[26]، وهذا الأمر يتطلب إنشاء مؤسسات ولجان تسهر على الدفاع عن الحقوق الثقافة للشعوب، فالتظلم الثقافي إعلام الجماهير أن مِن حق الشعوب التي يُعتدى على تاريخها ودينها ومقوماتها الثقافية أن تشكو الظلم، فكما أنَّ في السياسة والقوانين الدولية مبدأ حق تقرير الشعوب لمصيرها السياسي فهذا قد يُفضي إلى مواثيق تنص على مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها الثقافي. أما الإعداد الثقافي فإنك إن أردت ممارسة النقد والكشف عن مكنونات ثقافة مغايرة عليك فأنت ملزم بإعداد نفسك في هذا الباب، وهذا يقتضي من الشعوب معرفةَ جزئيات ومضامين تلك الثقافة الدخيلة عليهم متوسِّلين بأقوى مناهج التحليل والمقارنة والاستدلال.

د- التعارف الثقافي: إن رغبة الغرب في فرض نموذج ثقافي واحد وجعله ثقافة عالمية تستقر تحتها كافة الشعوب لا يكف إلا على ذلك الإكراه الذي يمارس على ثقافات الشعوب الضعيفة، فالثقافة الكونية لا تكون بالإرغام والإقصاء، بل إن الكوني هو فضاء تتعارف فيه الثقافات دون أن تلغي بعضها البعض، وان كان الجمهور الكوني ينظر إلى التعدد الثقافي على انه يهدد هيمنته الاقتصادية المادية فان التأثير المعنوي الناتج عن قمع الثقافات اقوى بكثير من التأثير المادي. وعليه فان مبدأ التعارف مقتضاه "إن الشعوب لم تخلق من أجل إقصاء بعضها بعضا، فاصطدام بعضها ببعض، وإنما من اجل التعارف ببعضها إلى بعض، اقرارا بحقه في الوجود والاختلاف، بل إقرار بقدرته على الإفادة والعطاء، فضلا عن الدخول في التعاون على مكارم الأخلاق"[27].

فالتعارف إنما هو صد لمحاولة فرض نمط ثقافي واحد على شعوب العالم تضر بمصالح الجميع، بما فيها مصالح الأمة الـمُستبدة أولا، إذ إن هذا الفرض يُضيق من آفاقها الفكرية واستعداداتها الشعورية وتحرم أجيالها القادمة من الاستمتاع بالإمكانات المعنوية الواسعة التي تتضمنها الثقافات المختلفة، بالإضافة إلى أن التضييق على الآخرين سيولد انفجار مقاومات شعبيةٍ ومواجهات عنيفة تضر بالمصالح الأمنية والاقتصادية. والتعارف من منظور طه عبد الرحمان لن يتأتى ولن يحقق مقصده الأصلي إلا في ظل حامل ضروري له وهو الحوار، والحوار بدوره سوف يخرج عن مساره الأصلي إن لم يتأطر بضوابط أخلاقية لذا نجد طه عبد الرحمان قد قدم رؤية وقراءة ناقدة للمنظومة الأخلاقية التي تعد الخلفية النظرية الموجّهة للحوار العالمي المعاصر كونها تصورات ونظريات تؤسس لصراع الحضارات ما أحال العالم إلى حالة من الاستعراض للقوة والتسارع نحو السيطرة والهيمنة ما أجج العنف في أنحاء العالم وزعزع الاستقرار والسلام. فمبدأ الحوار الذي تدعو إليه الرؤية الإسلامية من منظور طه عبد الرحمان الدافع لمفاسد الهيمنة، والساد لمنافذ الصراع الحضاري، ليس ذلك الحوار الذي يرفع كشعار غير بريء مفعم بالغموض والالتباس، والمرتبط بالمصالح، والذي يشعر الغير بالدونية، وإنما الحوار البناء المسؤول والعادل، الذي يشعر فيه الكل بأنه قابل للأخذ والعطاء بعيدا عن الاستعلاء والتعصب والتسلط ووقاحة الإنكار، وعندها تتلاقح الحضارات، وتتفاعل الثقافات. يقول طه عبد الرحمان "فلا سبيل إلى وضع الفرقة إلا باجتهاد المتحاورين في تحصيل الاستقامة في سلوكهما بالقدر الذي يتيح لهما أن يتفاعلا فيما بينها تفاعلا مثمرا غير مجدب، ولا يخفى أن هذه الاستقامة توجب أن يجعل الواحد منهما اعتبار الغير فوق اعتبار الذات"[28]. فالحوار والتعارف المقصود هنا لا يرمي إلى التطابق في وجهات النظر بين المختلفين، بقدر ما يرمي إلى خلق مناخ للتعايش، من أجل بناء نظام عالمي إنساني الطابع والاتجاه، لا يتم إلا عبر مشاركة الجميع في تشكيله، نظام يقبله جميع الأطراف، يقوم على التعددية والحوار والتعاون، والتعايش المشترك، وتنتفي منه لغة الفرض، وأساليب الهيمنة.

لقد تكرست الرؤية الإسلامية عبر تاريخها بشأن حوار الحضارات وتلاقي الثقافات عمليا وواقعيا عبر قيم العدل والتسامح، والتآخي، والإحسان، والأمانة والتضامن. ورفض مقولة التدافع السلبي وفق مقولة الصراع المسوقة عالميا، كسبيل لحل التناقضات والخلافات التي تحدث بين المختلفين، وذلك لأن غاية الصراع ومآله نفي وإلغاء الآخر، وبالتالي نفي وإلغاء للاختلاف والتمايز كسُنَّة كونية. وفي ذلك إلغاء لأصل مقصدية التدافع والجدال بالتي هي أحسن، لقول المولى تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:34). فالتدافع الذي يأمر به القرآن لا يلغي المختلف أو الآخر وإنما يسعى إلى ترشيده من موقع الخطأ إلى صوابية التوجه، والسداد في تحقيق النجاح الدنيوي والأخروي. فالرؤية الإسلامية تتنكر لنزعة المركزية المغرضة التي تريد أن يكون العالم نمطا وقالبا عقديا وثقافيا واحدا، منكرة على الآخرين حق التمايز والاختلاف لقوله عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة: 48). ففلسفة التدافع في الرؤية الإسلامية تقوم على الحركية والفاعلية بين الثقافات والحضارات بدل السكون، كما يتأسس التدافع على التنافس الإيجابي باعتباره الضامن لعدم انحراف الحضارات وتغوُّلها، ومعيار لتصويب أخطائها "فالتدافع الحضاري الذي هو حراك وتنافس وتسابق، يحافظ على التعددية، ويتوسط بين "الصراع" و"السكون" وهو فلسفة الإسلام وسبيل حضارتنا الإسلامية في العلاقات بين الحضارات"[29].

إن التعارف الذي تؤسس له الرؤية الإسلامية وفق سُنّة التدافع، هو ذلك الفعل الذي لا يشترك فيه أشخاص مختلفون فحسب، بل تشترك فيه أمم مختلفة بكاملها، وكلما زادت قوة العمل وزاد عدد الأمم المشتركة زاد حضها من الأخلاق، وجب علينا التسليم بأنه لا يستقيم حال العمل التعارفي، إلا إذا قام على مبدأ الحوار كأساس حضاري لدفع مفاسد الهيمنة، وسد منافذ الصراع الحضاري، وهو الذي اصطلح عليه باسم "حوار الحضارات". لكن ليس ذلك الحوار الذي يرفع كشعار غير بريء مفعم بالغموض والالتباس، والمرتبط بالمصالح، والذي يشعر الغير بالدونية، وإنما الحوار البناء المسؤول والعادل، الذي يشعر فيه الكل بأنه قابل للأخذ والعطاء بعيدا عن الاستعلاء والتعصب والتسلط ووقاحة الإنكار، وعندها تتلاقح الحضارات، وتتفاعل الثقافات. فالتدافع التعارفي هو الذي يروم دفع الآخر للعدول عن مواقفه المتعصبة والعدوانية عن الآخر المتمايز عنه، وإشراكه في تحقيق المصلحة والمنفعة العامة للنوع الإنساني على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم، فيربح جميع الأطراف المتدافعة، ويساهم الجميع في صنع مستقبل الجميع، لأن الرابطة الإنسانية الوحيدة حقًا – كما يقول المفكر الفرنسي روجيه غارودي – لجماعة إنسانية حقا، تتمثل في اشتراك هذه الجماعة في مشروع عام، وتعاونها على تحقيق هذا المشروع بوصفه مشروعا مشتركا للإنسانية كلها كوحدة كلية، وهكذا يساهم كل شعب من خلال ثقافته الأصلية في أنسنة الإنسان، ونموه وتقدمه الحقيقي في الإنسانية[30].

إن الحتمية التي يجب أن يؤول إليها العمل التعارفي يحصل التنوع الثقافي والحضاري أو بالأحرى أشكال التنوع الحاصلة بين المجموعات البشرية في التاريخ، بحكم تنوع شروط كينونتها. إلا أن هذا التنوع لا يعني تنافي الثقافات وتنافرها، بل تكامل الثقافات وتقاربها في شكل تفاعلي يقول طه عبد الرحمان: "فكما أننا نأخذ من ثقافة الآخرين ونحتاج إلى البقاء على الأخذ منهم، لا من جهة الإطلاع على أسباب المعرفة فحسب؛ بل أيضا من جهة تقوية العمل التعارفي أي يرجع إليه كمال التخلق، فكذلك ينبغي أن نعطيهم من ثقافتنا ما لا يقدرون على تحصيله بأنفسهم، بل أن نحوجهم إلى هذا التحصيل متى واصلنا تملك أسبابهم وتوسلنا بها في الكشف عن جوانب من ثقافتنا تفيدهم في دفع الآفات التي دخلت اختباراتهم الحضارية"[31].

خاتمة

ما نخلص إليه هو الواقع الكوني في ظل نظام العولمة قد عمل ويعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى، ويدفع إلى التفتيت والتشظي، ليربط الناس بعالم اللاوطن، واللاأمة، واللادولة. لقد كان هدف الفكر الغربي المتمركز حول ذاته من العولمة الثقافية تحقيق الربح المادي، ومنطقها هو منطق الربح الذي يمكن تحقيقه عبر العولمة الثقافية والفكرية والاجتماعية. فتصدير ثقافة واحدة والتي هي الثقافة الغربية يعني استهلاك كل منتجاتها في مختلف المجالات. لقد استعملت الثروة المعلوماتية لتحطيم خصوصيات الأمم المختلفة بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى. إن العولمة في الحقيقة كما يقول برهان غليون ليست هي المنشئة لسيطرة ثقافة على ثقافة أخرى، ولكنها منشئة لنمط جديد من السيطرة الثقافية، مما يوجب على أصحاب كل ثقافة محلية تطوير ثقافتهم لمواجهة المتحديات فثقافات الهوية لن تستطيع الصمود في عالم يتطور في عالم سيطرت عليه التكنولوجيا الحديثة التي دخلت كل البيوت دون استئذان إلا إذا جددت أساليب طرح المشكلات، ووقع الارتفاع بالثقافة إلى مستوى متطلبات العصر. وعليه فإن أكبر مشكلة تعاني منها البشرية اليوم هي كيفية إيجاد عالمية ترتكز في قوامها الوجودي على احترام مبدأ الحق الكوني، فيعاد للكوني اعتباره في ظل عالمية بديلة لا تهمل تنمية الخصوصيات، وتسعى لإرساء دعائم كونية متفتحة على التعدد. فالعالمية نزعة إنسانية توجه التلاقح بين الحضارات، والتكامل والتعارف بين مختلف الأمم والشعوب. وهذه هي - كما يقرر طه عبد الرحمن- خصوصية الجواب الإسلامي، أي واجب الأمة الإسلامية في وضع جوابها الخاص على أسئلة الراهن، هذا الجواب يمكّنها من الحضور و الانخراط في ما يطرحه الراهن من قضايا نظرية و فكرية يمنحها الاستقلال بجوابها الخاص، و يجنبها التبعية لغيرها من الأمم بتبني مفاهيمها و مناهجها و نظرياتها. على أن استقلال الأمة العربية الإسلامية يكون بروح جوابها تلك الروح المتشكلة من قيم الدين الإسلامي، فالزمن الراهن زمن انتماءها إلى الدين الإسلامي الخاتم، وبموجب هذا الانتماء تكون مسؤولة بخصوصية جوابها على أسئلة الراهن.

وبناء على هذه الخصوصية يؤكد طه عبد الرحمن أنه لا خوف من الاندماج في التعولم المعاصر، بل نحن مندمجون فيه شئنا أم أبينا، أو على الأقل أخذنا في الاندماج فيه من حيث ندري أو لا ندري، لأن الإنسان يبقى له سلطان ظاهر على هذا التعولم من جهتين: أحدهما أن يقدر على أن يأتي بقيم نافعة تواجه القيم الضارة التي قد يفرزها هذا التعولم، لأن الأصل في الإنسان أنه آية، ولا يكون آلة في فعل من أفعاله إلا بدليل. فالانخراط في النظام المعولم صار أمرا محتوما، ولكن هذا لا يعني الانخراط فيه بكل قيمه، وإنما يمكننا كعرب ومسلمين إضفاء قيمنا الخاصة، والنابعة من هويتنا الثقافية المصبوغة بصبغة الإسلام على العولمة، فهو يتطرق إلى علاقة العولمة بالنهضة العربية الثابتة. فيرى بأن تحقيقها يفرض تعاملا إيجابيا مع العولمة، أي تعاملا مبنيا على الجهد الخلاق والتي تختصر أفكارا عدة مثل الثقة في الذات والعمل الدؤوب والنقد والتخيل والمبادرة والابتكار، والانطلاق من مكونات الهوية العربية الإسلامية.

الهوامش:

[1]- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، ط1 ،2005، ص87.

[2] - طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2011، ص 19.

[3]- جان بودريار: السلطة الهمجية، تر: بدر الدين عرودكي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 134، 2006، ص134.

[4]- طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص ص 51-52.

[5]- كارل ياسبرز، تاريخ الفلسفة بنظرة عالمية، تر: عبد الغفار مكاوي، دار التنوير، بيروت،2007، ص76.

[6]- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري ص81.

[7]- إدوارد بورتيلا، الثقافة في القرن 21 استنساخ أم تهجين؟ ضمن كتاب جماعي: القيم إلى أين؟ إشراف جيروم بندي، تر: زهيدة درويش جبور، جان جبور، المجمع التونسي للآداب والعلوم والفنون، بيت الحكمة، اليونسكو، 2005، ص 346.

[8]- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص 144.

[9]- علي عقلة عرسان، العولمة والثقافة، مجلة الفكر السياسي، العددان (4 – 5) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص204.

[10]- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط1، 2006، ص78.

[11]- يرى طه عبد الرحمان أن البعض من المفكرين يقلل من خطورة الاستتباع الثقافي ويطلق عليها اسم "التثاقف أو المثاقفة أو التواصل الثقافي" فمثلا نجد كمال عبد اللطيف يقول في كتابه: أسئلة النهضة العربية -التاريخ والحداثة والتواصل-، ص149، (إن المشتغلين بتاريخ الأفكار والثقافات في بعدها الشمولي ، يدركون عمليات المواءمة والاستيعاب الحاصلة في التاريخ العربي الإسلامي ، عملية المواءمة بين التصورات التي بلورها المنظور الديني الإسلامي للكون وللإنسان وللمعرفة، وبين مكاسب الثقافة العربية السابقة للإسلام ، والثقافات الأخرى المعاصرة له ، ولا يمكن أبدا إنكار الدور البارز الذي لعبته منظومات ثقافية معينو في تكوين الثقافة الإسلامية في مختلف مجالاتها) غير أن هذا الإطلاق عند طه عبد الرحمان فاسد، لأن المراد هو إمداد إحدى الثقافتين للأخرى من غير أن يصح العكس فتكون تابعة لها، في حين أن صيغة لفظ "التثاقف" في اللغة العربية تفيد أن الإمداد حاصل من الجانبين معا، وهذا منتفى في الواقع الكوني اليوم.

[12]- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص82.

[13]- صموئيل هينتجنيون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، تقديم: د. صلاح قنصوة، ط1، 1998، ص 293.

[14]- ريتشارد نيكسون، اقتناص اللحظة، تر: عبد الحق عبد المولى، دار التراث العربي، القاهرة، مصر، ص123.

[15]- فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، تر: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1993، ص 188.

[16]- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص 83.

[17]-عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص43.

[18]- عبد الوهاب ألمسيري، صراع حضارات أم حوار ثقافات، منشورات منظمة تضامن الشعوب الإفريقية والأسيوية، القاهرة، مصر، 1997، ص100.

[19]- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص147- 148.

[20]- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي فيا لاختلاف الفكري، ص 84.

[21]- المصدر نفسه، ص85.

[22]- طه عبد الرحمن، الآفات الخلقية للعولمة، كيف يمكن درؤها؟ مجلة المنعطف، وجدة، المغرب، العدد 20، 2002، ص 4.

[23]- طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص90.

[24]- محمد عابد الجابري، الشأن الإنساني في عصر الخوصصة والعولمة من اجل إعلان عالمي لأخلاقيات العولمة، مجلة فكر ونقد، العدد 1 سبتمبر1997، ص ص 22-23

[25]- طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص90.
[26]- المصدر نفسه، ص91.
[27]- المصدر نفسه، ص93.
[28]- طه عبد الرحمان، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ص44.
[29]- محمد عمارة، الحضارات العالمية تدافع أم صراع؟ دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1998، ص19.
[30]- روجيه جارودي، كيف نصنع المستقبل، ترجمة: منى طلبة، أنور مغيث، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط3، 2002، ص 182.
[31]- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، مصدر سابق، ص 88.